جغرافية موقعة اليرموك

إعداد/د . طه بن عثمان الفراء

مقدمـــــة :

تلعب الظاهرات الجغرافية دوراً مهمّاً في سير المعارك الحربية ونتائجها . ومن المعروف أن أيّ جيش يدخل المعركة تضع له قيادته خطّة مرسومة يتقيّد بعناصرها قلباً وقالباً مادام ذلك يرمي إلى مصلحة الوطن وكلما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وهذه الخطة لاتوضع ارتجالاً بل تأخذ في اعتباراتها أموراً شتّى ، من أهمها الظاهرات الطبيعية والبشرية لمسرح العمليات والمناطق الملاصقة له أو المحيطة به .

ولاشك أن مثل هذه الظاهرات من تضاريس ومناخ وسكان وطرق ومناطق سكنية وغيرها من الظاهرات الموجودة في مناطق التحام الجيوش المتحاربة تعتبر سلاحاً ذا حدّين ، يمكن لمن يجيد استغلالها أكثر من غيره الاستفادة منها على الوجه الأكمل .

إن استغلال الظاهرات الجغرافية في سبيل إحراز النصر في ميادين الحرب لايمكن اعتباره حالياً مجرّد اجتهاد شخصي يختلف من محارب لآخر . فقد أصبح حسن استغلال تلك الظاهرات علماً له أصوله ويستند إلى دراسات

علمية وعمليات ميدانية خاضتها الجيوش والشعوب ودفعت أثمانها غالية من دماء وأرواح أبنائها ومواردها المختلفة . والجدير بالذكر أن الجغرافيا العسكرية تعطي جل اهتمامها لدراسة الظاهرات الجغرافية في ضوء التغيرات السياسية والأحداث التاريخية .

إن المتتبّع للعمليات الحربية التي خاضت غمارها الجيوش الإسلامية عبر التاريخ بوجه عام ، وفي عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بوجه خاص ، يجدها قد أولت اهتماماً كبيراً للتعرف على جغرافية ميادين المعارك قبل أن تدور رحى الحروب على أديمها . وكثيراً ماكان المسلمون أنفسهم يختارون أرض المعركة ، ويجبرون عدوّهم على ملاقاتهم فيها . كما حدث في موقعة دومة الجندل عندما جعل خالد بن الوليد « . . . دومة وحصنها بينه وبين عياض ، ففرض بذلك على عدوّه ساحة القتال دون أن يكون لهذا العدوّ رأي في اختيارها »(١).

أما بالنسبة إلى معركة اليرموك ، فإنه بعد أن توغّلت جيوش المسلمين في بلاد الشام واحتلّت حمص ودمشق وبعلبك بدأ الروم يعدّون لهجوم معاكس . وهنا رأى المسلمون أن طبيعة الأرض وطول خطوط مواصلاتهم التي تربطهم بجزيرتهم تحتّم عليهم الإتجاه جنوباً إلى درعا (أذرعات) وذلك جرياً على المبدأ العسكري السائد عند العرب: (أَعْطِ ظهرك للصحراء تسلم). وبذلك أسهموا بطريق غير مباشر في اختيار الروم لأرض المعركة التي تحولت في نهاية الأمر إلى مقبرة لهم على الرغم من أن الروم كانوا يرغبون في جَرّ المسلمين إلى الساحل، لتدور المعركة بالقرب من البحر، وذلك جرياً على المبدأ الحربي السائد عند الروم: (اقتربْ من البحر تأمن).

لماذا حرص المسلمون على فتح بلاد الشام ؟

لقد كان زحف الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام ، وتخليصها فيما بعد من الروم ، مكملاً لرسالة الإسلام . ولاغرو أن نرى أن الرسول ﷺ يبعث سراياه ويجهز حملاته إلى بلاد الشام ثم يأتي الخلفاء الراشدون فيحملون الأمانة في أعناقهم ويذهب جيش أسامة بن زيد حسب وصية الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هناك . ثم يتلو جيش أسامة

زحف شامل لجيوش المسلمين لرفع راية الإسلام خفّاقة في تلك الديار .

وعلى الرغم من أن أبا بكر الصديق قد أمر جيوش المسلمين بفتح بلاد الفرس فإن ذلك لايعني أن رغبته في فتح بلاد الشام كانت أقل من رغبته في فتح غيرها من البلاد . وكيف لا وهو القائل : «لَفَتْحُ قريةٍ في الشام أفضل عندي من فتح بلدٍ في العراق» . ومن المعروف أن خالد بن الوليد عندما كان يقود جنود المسلمين في بلاد فارس من نصر إلى نصر أمره أبو بكر رضي الله عنه بالتوجّه في مفرزة استطلاعية إلى بلاد الشام ليصيب من أخبار جيوش الروم هناك . ولقد قام خالد بهذه المهمة ووصل إلى منطقة حوران وكاد أن يقضي عليه أحد قادة الروم لولا نجدة عكرمة ابن أبي جهل له .

«وكانت خطة أبي بكر أن يبدأ بغزو العراق ، وكانت فارس أسهل منالاً وأقل بأساً من الروم ، حتى إذا مااستقر الأمر لجيوشه في العراق نقل ميدان القتال إلى أرض الشام ليعارك عليها أكبر امبراطوريات الشرق وأعظمها بأساً في ذلك العصر»(٢) .

إن من أهم الأسباب التي وجهت أنظار المسلمين إلى فتح بلاد الشام مابين بعض أهلها وبين عرب الجزيرة من روابط عرقية وروحية ودينية تكتمل به شريعة الإسلام . أن تلك البلاد مهد اليهودية والنصرانية ومهبط كثير من الأنبياء والرسل ومنها قدسها مسرى هادي الأمم عليه الصلاة والسلام حيث عرج إلى السماء . ولقد لعبت هذه الأسباب دوراً بارزاً ليس في انتصار المسلمين في معركة اليرموك فحسب ولكن في مصير التاريخ الإسلامي في بلاد الشام بأسرها بعد دخولها إلى حوزة الإسلام .

ماقبل اليرموك :

لم يهدأ للروم بال بعد إغارة أسامة بن زيد على بلادهم . فأمر هرقل امبراطور الروم بجمع جيوش كثيرة العدة والعدد لتعسكر على مقربة من بلاد العرب . وكانت الجيوش الإسلامية آنذاك تقارع جيوش الفرس في أرض العراق تحت قيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة(٣) . وتحسباً لأي هجوم مفاجىء أو توغل لجيش الروم في جزيرة العرب طلب أبو بكر الصديق الصحابة

وشاورهم في الأمر . ثم أمر الصديق بالنداء إلى الجهاد ومحاربة الروم في عقر دارهم . وسرعان مالبّى المسلمون النداء وانخرطوا في صفوف المجاهدين طمعاً في نيل الشهادة أو الظفر بسعادة الدارين . وعندما تجمعت حشود المسلمين في المدينة المنورة ، وعقد أبو بكر رضي الله عنه اللواء لأربعة من الأمراء هم أبو عبيدة ابن عبدالله الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، متخذاً من أبي عبيدة بن عبدالله الجراح قائداً عاماً للجيوش الأربعة(٤) . ويبدو أن الصِّديق بتعدد الجيوش كان يرمي إلى إرباك عدوه « . . . من حيث تجهيل مقصد كل جيش عليه ، ويشتت تخطيطه من حيث توزيع قواته لملاقاة كل جيش منها . . .(٥) » . وانطلقت الجيوش .

والجدير بالذكر أن الطبري لم يذكر في خبر اليرموك شيئاً عن تأمير أبي عبيدة على أمراء الجيوش الأربعة وإنما ذكر أنه عندما قدم خالد بن الوليد إلى حيث عسكرت تلك الجيوش بأرض اليرموك وجدهم وكأنهم لايوجد تنسيق بينهم وأن في نيتهم دخول الحرب تحت أكثر من راية . فلم يوافقهم الرأى وبيّن لهم مغبّة ذلك فأمّروه عليهم كما سنرى(٦) .

مسيرة الجيوش :

خرج يزيد بجيش قوامه ثلاثة آلاف محارب وكان ذلك في الثلث الأخير من شهر رجب من السنة الثانية عشرة الهجرية (**أكتوبر سنة ٦٣٣ م**). ثم زاد عدد الجيش فيما بعد إلى أن وصل إلى حوالي **٧٥٠٠ محارب**. ولقد صادف آنذاك أن كان خالد ابن الوليد وعياض ابن غنم يحكمان الحصار على دومة الجندل التي مالبثت أن فتحت أبوابها لهذين القائدين . وكانت عملية الحصار هذه في نطاق الأعمال الحربية التي قام بها خالد في أثناء فتحه للعراق . وعلى الرغم من أن دومة كانت محاصرة « . . . منذ أوائل ذلك العام الهجري . . . » فإنه لاشك أن استسلامها قد كان له أطيب الأثر في تأمين الطريق لجيوش المسلمين المتجهة من المدينة إلى بلاد الشام(٧) . وتوجه الجيش الزاحف من المدينة إلى مدائن صالح ثم إلى تبوك فالبلقاء في بلاد الشام (**شكل ١**) .

وبعد ثلاثة أيام من مسيرة جيش يزيد انطلق شرحبيل بن حسنة بجيشه عبر الطريق التي سارها الجيش الأول .

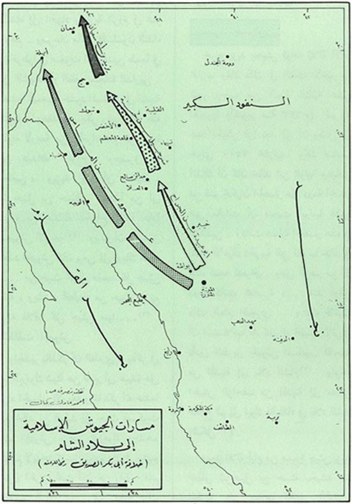
مسارات الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام
(خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه)
النفود الكبير
دومة الجندل
عمان
أيلة
تبوك
الأخضر
قلعة المعظم
القليبة
تيماء
مدائن صالح
العلا
الوجه
خيبر
أبو عبيدة بن الجراح
بواطة
المدينة المنورة
ينبع البحر
رابغ
مهد الذهب
الدفينة
مكة المكرمة
الطائف
تربة
البحر الأحمر
نقلت بتصرف عن: أحمد عادل كمال
كم

شكل (١)

ويكمن جزء من حكمة تأخير الجيش الثاني هذه الأيام الثلاثة في عدم استنزاف آبار المياه في أثناء مسيرة عدد كبير من الناس في وقت واحد ، وتجنب عملية اكتظاظ الطرق بالأفراد .

وبعد أن توافد المتطوعون للجهاد من أرجاء جزيرة العرب على المدينة المنورة ، وكلهم عزم وتصميم على حرب الروم واللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم إلى ساحات الوغى ، وبعد أن توفرت المؤن والأرزاق اللازمة لهم ، أمرهم أبو بكر بالتوجه تحت إمرة أبي عبيدة إلى بلاد الشام ، في أثر الجيشين الأول والثاني إلى أن وصل إلى مؤاب التي عقدت معه صلحاً . وكانت مؤاب أول مدينة في بلاد الشام يعقد أهلها صلحاً مع المسلمين . وبعد ذلك انطلق أبو عبيدة وجنوده إلى الجابية .

أما عمرو بن العاص فإنه قد سار بمحاذاة ساحل البحر الأحمر ماراً بالوجه ومدين وحقل والعقبة حتى بلغ وادي العربة . واشتبكت الجيوش الإسلامية مع الروم في اجنادين وانتصرت عليهم ثم توغلت في بلاد الشام (شكل ٢) .

مشورة هرقل لقومه :

عندما علم الروم بأمر جيوش المسلمين وأيقنوا أن المعركة الفاصلة بينهم وبين المسلمين قادمة لامحالة ، كتبوا إلى هرقل ، وكان آنذاك في القدس ، فقال : «أرى أن تصالحوا المسلمين ، فوالله لأن تصالحوهم على نصف مايحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم»(٨) . ولكن قومه لم يأبهوا بنصيحته ولم يقيموا لمشورته أي وزن وتفرقوا عنه وعصوا أمره . ولكن هرقل جمعهم وبدأ يعد العدة لملاقاة جيوش المسلمين كل على انفراد . ولكن المسلمين قبلوا تحدي الروم ، وأجمعوا رأيهم على أن تتمركز جيوشهم مجتمعة في منطقة اليرموك ، ويستدرجوا الروم لملاقاتهم على أرض المعركة هناك . ولقد تم لهم ذلك بعد أن رحلت قواتهم عن حمص ودمشق متجهة إلى جنوب اليرموك . ومما يذكر أن هرقل بعد مغادرته لأرض فلسطين يمّم وجهه شطر دمشق ثم غادرها قاصداً حمص ومنها انطلق إلى انطاكية . وبدأ ملك الروم من انطاكية يستنفر أهل ملّته لقتال

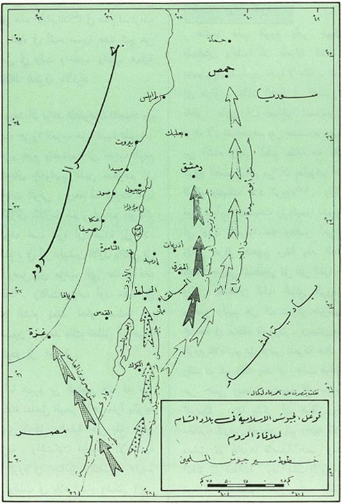
حماة
حمص
سورية
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
دمشق
عكا
حيفا
الناصرة
أذرعات
إربد
المفرق
البلقاء
السلط
عمان
يافا
القدس
غزة
الكرك
نهر الأردن
البحر الميت
وادي عربة
بحر الروم
بادية الشام
مصر
أبو عبيدة
يزيد بن أبي سفيان
شرحبيل بن حسنة
عمرو بن العاص
نقلته بتصرف عن أحمد عادل كمال.
توغل الجيوش الاسلامية في بلاد الشام لملاقاة الروم
خطوط سير جيوش المسلمين
٧٥ كم ٥٠ ٢٥ ٠ ٢٥ كم

شكل (٢)

المسلمين ، فجاءته قوات كثيرة العدة كبيرة العدد ، ومعها القساوسة والرهبان يحثون القوم على القتال . وكان جيش الروم مؤلفاً من جنسيات وأقوام مختلفة ، منهم الروم والأرمن والعرب المتنصّرة وغيرهم ، بعضهم انخرط في سلك الجيش طوعاً بينما أجبر الآخرون على الإنخراط . والجدير بالذكر أن القائد العام للروم في اليرموك كان أرمينياً يدعى باهان . ولقد بدت للروم سلبيات هذه الأمور قبل أن تدور رحى المعركة فيما بعد ، إذ قاموا بربط جزء من جنودهم في مجموعات صغيرة حتى لايفر منهم الذي أجبر على الإنخراط في الجيش ، أو الذي تسول له نفسه الفرار في أثناء احتدام القتال .

ومن المعروف أن من أهم أسباب الفرار من المعارك الحربية «. . . ضعف الشعور الوطني في النفوس»(٩) .

عندما علم المسلمون بجموع الروم جمعوا جيوشهم التي كانت منتشرة في بلاد الشام وعسكروا في الجابية . ولكن أبا سفيان ، وهو الخبير بأرض الشام منذ تردده عليها أيام تجارته ، أشار على المسلمين أن يختاروا مكان معسكرهم بالقرب من أذرعات لتكون خطوط اتصالهم مع جزيرتهم آمنة ، وبذلك يكون وصول العون والمدد من بلاد العرب مضموناً . وعمل المسلمون بمشورة أبي سفيان ونزلوا في أذرعات (شكل ٣) .

ولقد كانت البقعة التي اختارتها جيوش الروم للتمركز فيها ، قبل التعامل مع جيوش المسلمين ، من أهم الظاهرات الطبيعية التي أثرت بصورة مباشرة على سير ونتائج موقعة اليرموك . واليرموك نهر صغير الحجم يجرى قادماً من مرتفعات حوران عبر واد ضيق متعرج يشق هضبة رسوبية تعلوها طبقة من الصخور البازلتية ، ثم يرفد نهر الأردن على بعد يزيد على ستة كيلو مترات جنوبي بحيرة طبرية . وترفد مجموعة من الجداول والأودية نهر اليرموك في مجراه الأعلى ، من أهمها وادي الرقاد (الواقوصة) . ويرجع السبب في عمق أودية المجارى هنا إلى التكوينات الرسوبية التى تتألف منها الهضبة ، وشدة انحدار السطح مابين منابعها وغور الأردن الذي تفرغ مياهها فيه .

كان المسلمون في أذرعات ، وجاء الروم وتمركزوا في سهل على هيئة شبه

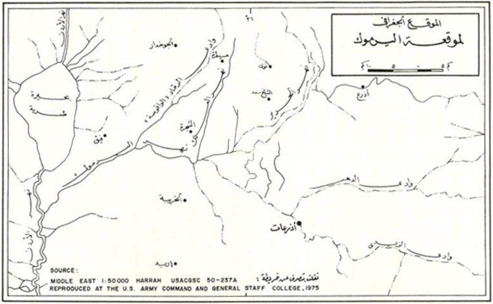
الموقع الجغرافي
لموقعة اليرموك
٥ كم ٠ ٥ ١٠كم
٣٦
نهر الأردن
بحيرة طبرية
الجوخدار
وادي الرقاد والواقصة
نوى
الشيخ سعد
فيق
نهر اليرموك
أذرع
وادي الذهب
أذرعات
الخربة
إربد
وادي الزيدي
الأردن

SOURCE:
نقلت بتصرف عن خريطة : MIDDLE EAST 1:50000 HARRAH USACGSC 50-237A
REPRODUCED AT THE U.S. ARMY COMMAND AND GENERAL STAFF COLLEGE, 1975

شكل (٣)

مثلث يتكون ضلعاه من وادي الرقاد شمالاً ونهر اليرموك جنوباً . أما رأس شبه المثلث فكان يتمثل في التقاء ذلك الوادي مع هذا النهر (شكل ٤) .

ولقد كان قصد قادة الروم ورجال حربهم أن تستفيد جيوشهم من وادي اليرموك كحاجز طبيعي يستترون به من جهة ويحول دون وصول المسلمين إليهم من جهة أخرى . بالإضافة إلى ذلك فإنهم كانوا يرمون إلى أن « . . . تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها»(١٠) . وأن يكون الواقوصة حماية لهم من الخلف .

وبعد أن استقر جيش الروم في البقعة المشار إليها تحوّل المسلمون من أذرعات ــ مكان تجمع جيوشهم ــ ونزلوا في مكان آخر بمحاذاة أعدائهم وسدّوا على الروم طريقهم التي لم يكن لهم سواها . ولقد صوّر عمرو بن العاص موقف الروم آنذاك بعبارته الخالدة . **«أيها الناس ، أبشروا ، حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير»(١١)** .

حاول الروم أن يشتبكوا مع المسلمين ، ولكنهم في كل مرة كانوا يرتدّون على أعقابهم خاسرين . وكان عدد جيش الروم أكبر بكثير من جيش المسلمين ، فكتب المسلمون لأبي بكر يخبرونه بذلك ويطلبون منه المدد والعون . وسرعان ماأرسل الصديق كتاباً إلى خالد بن الوليد ليسير من العراق لكي يرفد المسلمين في اليرموك بنصف الجيوش التي كانت تحت إمرته ، ويؤمر على النصف الباقي المثنى ابن حارثه الشيباني ، وأوصاه بأن لا « . . . يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق»(١٢) .

وفي مغامرة جريئة تمكّن خالد بن الوليد أن يقطع بادية السماوة في خمسة أيام بلياليها وهو يغذّ السير إلى أن وصل إلى جيوش المسلمين المرابطة في اليرموك في ربيع الآخر من سنة ١٣ هجرية . ولقد عمد خالد إلى أن يكون وقت استراحة جنده من عناء السير في ساعات النهار في مأمن من غائلة الظروف الصحراوية السائدة في البوادي التي كانوا يقطعونها من جهة ، ولكي لا يستنفدوا طاقات خيولهم وجمالهم وزادهم وشرابهم من جهة أخرى .

وكان خالد يسرى بالقوم ليلاً

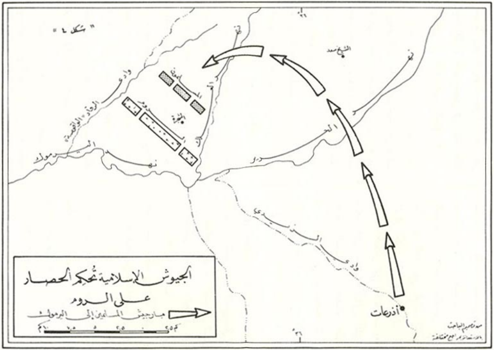
" شكل ٤ "
وادي الرقاد = الواقوصة
اليرموك
نهر
الروم
المسلمون
الشيخ سعد
أذرعات
وادي
الجيوش الإسلامية تُحكِم الحصار على الروم
مسار جيش المسلمين إلى اليرموك
٢٥ كم
٢٫٥
٥
٧٫٥
١٠ كم
من تصميم الباحث
بالاستعانة بمراجع مختلفة

شكل (٤)

«. . . مهتديا بكوكب الصبح جاعلاً إياه على حاجبه الأيمن . . .»(١٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه تصادف وصول خالد وقواته إلى معسكر المسلمين مع وصول «باهان» الأرمني إلى معسكر الروم .

نساء المسلمين وأطفالهن :

حرص المسلمون أن تكون نساؤهم وأطفالهم في الخطوط الخلفية للجيش . ولقد اختير لمعسكرهن مكان فوق تل توفرت فيه أسباب الحماية الكافية ، يعتقد بأنه تل شهاب الحالي . وعلى الرغم من بعد النساء عن ساحة المعركة فإنهن قد قمن بأعمال جليلة عندما دارت رحاها حيث قمن بمواساة المرضى وتضميد جراح المصابين من المسلمين وسقاية المجاهدين واثارة روح الحماس والعزيمة بين المحاربين ، والضرب على أيدي الهاربين من الحرب أو المتخاذلين من المسلمين لكي يعودوا إلى محاربة الأعداء من جديد . ولقد اشتركت بعض النساء أحياناً في القتال . ومما يذكر عن ابن الوليد أنه عندما رأى جحافل الروم تتوجه صوب رجاله نادى النساء بأعلى صوته قائلاً : «أيما رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه»(١٤).

الكيف أم الكم في الحرب ؟

على الرغم من أن كثرة أعداد الجيوش في الماضي كان لها وزنها في إحراز النصر فان نوعية المحاربين وصدق عزمهم على التضحية كانت ومازالت تفوق من حيث أهميتها كل العناصر الواجب توفرها من أجل الحصول على ذلك النصر . وهذه المقولة تنطبق تماماً على الجيوش التي خاضت غمار معركة اليرموك . ومما يؤكد هذا الرأي أن جيوش المسلمين بلغت حوالي سبعة وعشرين ألفاً عندما اجتمعت بأرض اليرموك . ثم قدم عليهم خالد بن الوليد بحوالي تسعة آلاف مقاتل فأصبح عددهم يناهز الستة وثلاثين ألفاً . وكان من بين هؤلاء ألف من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ مائة منهم حاربوا في صفوف المسلمين يوم بدر(١٥) . ولقد أسهم هؤلاء في رفع الروح المعنوية عند المجاهدين . أضف إلى ذلك أن وجود النساء المسلمات خلف جيش المسلمين قد أثار روح القتال وأيقظ روح الحمية لدى المسلمين .

ويجب ألا ننسى بالإضافة إلى ماتقدم أن الجنود المسلمين ، وهم أبناء الصحراء الأشداء ، لم يخرجوا من بلادهم لحرب الروم إلا طوعاً وعن طيب خاطر ، وكلهم ثقة بالله ثم بأنفسهم أن يرفعوا راية الإسلام خفاقة في تلك الديار .

ويقول ابن الأثير أن جيوش الروم قد كان عددها « . . . مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل ، منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفاً مربطون بالعمائم لئلا يفروا وثمانون ألف راجل . . . »(١٦) .

وإذا ماعرفنا أن جنود الروم كما سبق أن ذكرنا قد جاءوا من جنسيات وأقوام مختلفة وانهم وحالتهم تلك قد ربطوا بالسلاسل والعمائم بعضهم ببعض خشية الفرار فإنه يسهل علينا أن ندرك أن نوعيتهم قد كانت متدنية إذا قورنت بنوعية المجاهدين المسلمين .

سيف الله المسلول هو القائد العام :

بعد أن وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى أرض اليرموك قادماً من العراق وجد أن القوم قد عزموا على ملاقاة الروم متساندين . وكان يعني ذلك أن يقابل كلّ قائد بجيشه جيش الروم دون تنسيق مع القادة الآخرين . ولقد كانت عادة العرب أن يفعلوا ذلك في الحروب من أجل إثارة الحماس ونشر روح الاستماتة في الحرب بين الجنود ، حتى لاتعيّر بالهزيمة القبيلة التي جاء المحاربون من بين ظهرانيها إذا لم يثبتوا في ساحة الوغى . ومن المعروف أن كلاً من الجيوش الإسلامية التي ذهبت إلى اليرموك آنذاك كان في جله مؤلفاً من أفراد قبيلة أو أكثر تربط بينهم أواصر القربى والدم أو النسب . وهذا مادعاهم إلى التفكير في مقابلة الروم متساندين طمعاً في أن يلهب الخوف من الهزيمة والعار روح الحماس فيقوى عزيمة المسلمين فينتصروا .

ولكن خالد بن الوليد بثاقب بصره أراد أن يقابل الروم بنفس النظام المتبع عندهم ويحاول في الوقت نفسه استغلال مقومات النصر الأخرى من شجاعة وثقة بالله وصبر وجلد ووحدة الهدف التي توفرت عند المسلمين . ومن هذا المنطلق فإن خالداً قد وقف فيهم خطيباً وقال لهم : « . . . ولاتقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة ، على تساند وانتشار، . . . »

فأمروه عليهم «. . . فخرجت الروم في تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك»(١٧) .

وعلى الباغي تدور الدوائر :

بقي كل من الجيشين في موقعه ، وكان موقع الروم أكثر تحصيناً من الوجهة الطبيعية من موقع المسلمين . لقد كان وادي الواقوصة يوفر لهم الحماية من الخلف في حين أن وادي اليرموك كان يحول دون وصول المسلمين إليهم . وعندما وصل إليهم خالد بن الوليد قدّر بثاقب بصره معطيات الموقف ، وقسم الجيش الإسلامي إلى فرق (كراديس) ووضع على رأس كل فرقة أحد قادته البارزين . وكان من نصيب أبي عبيدة أن يكون أميراً على فرق قلب الجيش ، أما عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة فقد توليا إمارة كراديس الميمنة ، وتولى يزيد بن أبي سفيان أمر كراديس الميسرة . ولقد عنى ابن الوليد باختيار أمير لكل فرقة من أبطال المسلمين المشهورين ، أمثال القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الأزور أما القاضي فقد كان أبا الدرداء «. . . وكان القاضي سفيان بن حرب ، وعلى الطلائع قباث بن أشيم ، وعلى الأقباض عبدالله بن مسعود»(١٨) .

وزع الروم قواتهم على أن تكون رماتهم في مقدمة الجيش لكي يبدأوا جيوش المسلمين بالمبادرة في القتال ثم يتراجعوا ويأخذوا أماكنهم خلف الجناحين . ولقد تألف الجناحان من الخيالة الذين انحصرت مهمتهم في بداية الأمر في الحماية إلى أن ينسحبوا إلى ماوراء الجناحين . أما القلب ، وهو القوة الضاربة في الجيش عند الروم آنذاك ، فقد كان مكونا من فرق «كراديس» وقد انحصرت مهمتهم في التعامل مع المسلمين بهدف تدميرهم أو دحرهم .

وتقابل الجمعان ، وإذا برجل من جيش المسلمين يقول لخالد : «ماأكثر الروم وأقل المسلمين . . .» ولكن خالداً لم يقبل منه ذلك لما في ذلك القول من تثبيط للعزيمة وخفض للروح المعنوية عند السامعين وقال له خالد : «ماأقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان»(١٩) .

وبينما القوم كذلك إذ بالبريد يصل من المدينة إلى معسكر المسلمين يحمل خبر وفاة الصديق رضي الله عنه ، وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتولية أبي عبيدة أميراً على جيوش المسلمين في اليرموك بدلاً من خالد . وكتم ابن الوليد أمر ابن الخطاب الخاص بتولية القيادة إلى أبي عبيدة ، وبدأ كل من المسلمين والروم في تنظيم قواتهم للمعركة الفاصلة .

وجه خالد أمره إلى عكرمة والقعقاع بالتعامل مع العدو فكان ذلك ودارت المعركة وحمى الوطيس ، وتقدم المحاربون كل يرمي إلى تحطيم خصمه . ولم يجد الروم بدا من الخروج من خنادقهم . ودارت المعركة على أشدها والمسلمون قد أحكموا سد المنفذ السهلي الوحيد أمام عساكر الروم . انقض خالد بقلب الجيش على جيش الروم في حركة بارعة ترمي إلى قطع عناصر الإتصال بين فرسان الروم ومشاتهم محكماً الحصار على الفرسان . وسرعان ماأدرك الأعداء خطورة الذي آلوا إليه . فانطلق فرسانهم ينشدون السلامة في الفرار من المعركة عبر قوات المسلمين التي كانت تسد باب السهل . أمر خالد بن الوليد رجاله بأن لايصدوهم عن الفرار لكيلا يحملوهم على التضحية والاستماتة في القتال من جهة وحتى يسهل على قواته تحطيم قوة المشاة من جهة أخرى .

وأدى فرار فرسان الروم من أرض المعركة إلى كشف المشاة أمام المسلمين بخيلهم ورجلهم . وعاود ابن الوليد ضغطه من جديد عليهم فلم يتمكنوا من الصمود وأسلموا ظهورهم للمسلمين وانطلقوا نحو الواقوصة واليرموك يطلبون النجاة . ولكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار . هوى في الأودية والخنادق « . . . المقترنون وغيرهم ثمانون ألفاً من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة . . . »(٢٠) . وتم النصر لجيش المسلمين وكان ذلك بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل سلامة وفعالية . . . » تنظيماتهم ، واستغلال طبيعة الأرض خير استغلال ، واستخدام نظام الكراديس على خير وجه»(٢١) .

■ ■ ■

خاتمة :

على الرغم من أن كاتب البحث قد حاول إبراز أهمية الدور الذي لعبته الظاهرات الجغرافية في الإعداد لمعركة اليرموك وسيرها ونتائجها فإنه لم يغفل الجانب التاريخي في هذا البحث نظراً لأن الجغرافيا السياسية والجغرافيا العسكرية ترتكزان بوضوح على التاريخ في جوهر دراستهما . ولقد أبرز البحث أنه مع عدم وفرة الموارد الطبيعية الكافية لتزويد جيوش ضخمة في بلاد العرب، فإن أبا بكر الصديق قد تمكن من إعداد جيوش إلى بلاد فارس والشام لمنازلة أقوى دولتين في العالم في ذاك الزمان وهما دولتا الفرس والروم . لقد خرج المسلمون من كل أرجاء الجزيرة مشحونة قلوبهم بالإيمان ولديهم كميات محدودة جداً من الزاد والعتاد واتجهوا صوب بيئات جغرافية تختلف في مظهرها وجوهرها وعادات أهلها عن بيئتهم التي نشأوا في كنفها وألفوها . خرجوا وهم يألفون نظاماً قتالياً تقليدياً لايجدى ولاينفع إذا ماااستخدموه ضد جيوش نظامية ، ولكنهم سرعان ماطوروا ذلك النظام فبهروا أعداءهم بهم وبسرعة تبنيهم لكل جديد وتفوقوا بذاك النظام على الجيوش النظامية التي ابتكرته .

لقد كان حسن استغلال المسلمين لعناصر البيئة التي حاربوا على أرضها ، وحسن استثمار طاقاتهم البشرية من أهم الأشياء التي جعلت منهم سادة ميادين المعارك عند منازلة الأعداء . وعندما كانت للمسلمين جيوش تحارب في بلاد فارس تحت قيادة خالد بن الوليد والمثنى ابن حارثة ، واستدعى الموقف الاستعانة بجزء من تلك القوات في بلاد الشام ، صدرت أوامر أبي بكر رضي الله عنه إلى ابن الوليد أن يتحرك بجزء من الجيش الإسلامي إلى هناك فتحرك . ونظراً لتمرس العرب على البيئة الصحراوية فقد استطاع ابن الوليد بجيش قوامه حوالي أربعة آلاف مقاتل أن يقطعوا بادية السماوة في أقصر فترة ممكنة وبأقل كمية من الزاد والشراب لم تكن لتكفي أبداً غيرهم لو وضعوا في الظروف نفسها .

وأما بالنسبة للظاهرات الجيومورفولوجية والظروف المناخية لميدان معركة اليرموك فإن المسلمين قد استغلوها لمصلحتهم أحسن استغلال .

ويكفي أن نعرف أن الأودية والخوانق التي اعتقد الروم أنها ستكون لهم نعم الساتر ساعة المعركة قد فقدت مزاياها لأن المسلمين قد حرموهم من تلك المزايا وأحالوا تلك الظاهرات إلى مقابر للروم . وأما فيما يختص بنوعية المجاهدين المسلمين وثقتهم بالله ثم بأنفسهم وبقادتهم فقد كان لها أكبر الأثر في أن ينتزعوا النصر من أيدي أعدائهم على الرغم من أن عدد الروم كان يعادل حوالي ستة أمثال عدد المسلمين . بالإضافة إلى ذلك فإن وجود نساء المسلمين بالقرب من ميدان المعركة عندما تركوهن على جزء مرتفع من الأرض بقصد الحماية كان له الأثر الأكبر في إلهاب حماس المسلمين في الحرب وإثارة النخوة والحمية في صفوف المسلمين .

أما عن الخطة التي استخدمها خالد ابن الوليد إذ أمر بإخلاء الطريق أمام فرسان الروم عندما عزموا على الإفلات من الحصار فقد كان لها أثرها في أن يكون النصر من نصيب المسلمين . بالإضافة إلى ماتقدم فإن هناك ظاهرات جغرافية بشرية وطبيعية لاتزال في حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث لكي تبرز جغرافية هذه المعركة المهمة على أمل إمكانية الإستفادة منها في نطاق الجغرافيا العسكرية .

□ □ □

الهوامش :

* قدم هذا البحث إلى ندوة اللقاء الجغرافي الثاني ، التي عقدتها جامعة الملك سعود ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م .

(١) سويد ، المقدم ياسين ، معارك خالد بن الوليد (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣م) ، ص ٢٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٣) حسن ، حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، المجلد الأول (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) ، ص ٢٢٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٥) كمال ، أحمد عادل ، الطريق إلى دمشق (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٠م) ، ص ٢٣٣ .

(٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الطبري جـ ٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م) ، ص ٣٩٦ ــ ٣٩٧ .

(٧) كمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢ .

(٨) ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني (بيروت : دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م) ، ص ٤٠٦ .

(٩) عون ، عبدالرؤوف ، الفن الحربي في صدر

الإسلام (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م) ، ص ٨٥ .
(١٠) الطبري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٣ .
(١١) المرجع السابق .
(١٢) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٧ .
(١٣) سويد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .
(١٤) المرجع السابق .
(١٥) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٠ .
(١٦) المرجع السابق .
(١٧) الطبري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٦ .
(١٨) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١١ ــ ٤١٢ .
(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ ــ ٣٩٨ .
(٢٠) ابن الأثير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٣ .
(٢١) عون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٨ .

□ □ □

مصادر ومراجع البحث

- ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ، **الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني** (بيروت : دار صاد للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م) .
- البلاذري ، أحمد بن يحيي ، **فتوح البلدان** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦م) .
- حسن ، حسن إبراهيم ، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، المجلد الأول** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م) .
- خطاب ، محمود شيت ، **خالد بن الوليد المخزومي ، ط٣** (الاسكندرية : المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م) .
- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، **تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الإعلام** (القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٧٤م) .
- سويد ، المقدم ياسين ، **معارك خالد بن الوليد** (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣م)
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، **تاريخ الطبري** ، حـ ٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م) .
- عرجون ، صادق ابراهيم ، **خالد بن الوليد ، ط ٣** (الرياض : الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١م) .
- ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين ، **تهذيب ابن عساكر** (دمشق : ١٣٢٩هـ) .
- العلي ، بسام ، **خالد بن الوليد ، ط ثانية** (بيروت : دار النفائس ، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م) .
- العقاد ، عباس محمود ، **عبقرية خالد** (القاهرة ــ نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة ، بدون تاريخ) .
- عون ، عبد الرؤوف ، **الفن الحربي في صدر الإسلام** (القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٦١م) .
- القرماني ، أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ** (بيروت : عالم الكتب بدون تاريخ) .
- ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ، **البداية والنهاية ، جـ٧** (بيروت : مكتبة المعارف ، بدون تاريخ) .
- كمال ، أحمد عادل ، **الطريق إلى دمشق** (بيروت : دار النفائس ، ١٩٨٠م) .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن حعفر بن وهب ، **تاريخ اليعقوبي ، المجلد الثاني** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م) .